**المحاضرة الأولى: الكشوف الجغرافية**

كان لظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية الأثر الكبير في نقل المنطقة كلها من حالة الجهل والتخلف والعنصرية القبلية وعبادة الأوثان إلى عبادة الله وإزالة الفروق بين البشر. فكان لتطبيق أسلوب الحكم النابع من إيمان ديني عميق الأثر الكبير في انطلاق الحضارة الإسلامية وإشعاعها على العالم. فشهد العالم مرحلة من التنوير العقلي امتدت لأكثر من ستمئة سنة، اخترع خلالها العلماء المسلمين -ومن انضووا تحت ظل الحضارة الإسلامية- الكثير من الاختراعات، وابتكروا العديد من الابتكارات، واكتشفوا العديد من الاكتشافات التي لا تزال البشرية تستفيد منها. في هذه الفترة كانت أوروبا غارقةً في الجهل والتخلف، وكانت مقسمة بين عدة امبراطوريات وإقطاعيات قامت على أنقاض الإمبراطورية الرومانية، وكانت الشعوب الأوروبية تئن تحت وطأة الفقر والمرض. وظل نجم الحضارة الإسلامية في صعود، وحضارة الغرب في هبوط، حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي الذي شهد بداية أفول العقل في الحضارة الإسلامية.

في تلك الأثناء، كان الأوربيون قد استفادوا من احتكاكهم بالمسلمين في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وبلاد الشام، وبالتالي نهلوا من العلم المزدهر في الحضارة الإسلامية عبر هذه الجسور الجغرافية، فشعت شمس الحضارة الإسلامية على الغرب الأوروبي، وانطلقت حركة التنوير في أوروبا من المدن التجارية الإيطالية التي كانت على علاقة جيدة بالعالم الإسلامي، وكانت هذه الحركة تهدف للتخلص من تسلط الحكام والأمراء ورجال الدين. فانهارت القاعدة التي وضعها رجال الدين القائلة بأن دراسة فكر الشعوب الأخرى نوع من الزندقة والكفر. فانتقلت العلوم التي كانت تدرس في بخارى والري وبغداد ودمشق والقاهرة والقيرون ومراكش وفاس وقرطبة إلى بولونيا وفلورنسا وباليرمو ولشبونة ومدريد وروما ومونبلييه وباريس وبرلين ولندن، وبالتالي أصبحت هذه المدن هي مراكز الإشعاع الحضاري الجديدة. ولم يأتِ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي حتى خرجت أوروبا من القرون الوسطى وبنت قوتها الاقتصادية والعسكرية، وانتهت الحروب الطاحنة بين فرنسا وبريطانيا، وشيدت دول غرب أوروبا أساطيلها البحرية وبدأت تستكشف المحيطات، واخترعت المطبعة والأسلحة النارية. أدت كل هذه التغييرات إلى تفوق الأوربيين على المسلمين، مما نتج عنه إخراج المسلمين من الأندلس بعد سبعة قرون من إقامتهم بها.

**دوافع الكشوف الجغرافية الأوروبية:**

أدت هذه النهضة الفكرية الأوروبية إلى ظهور الكشوفات الجغرافية الكبرى في القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. انطلقت الكشوف الجغرافية تحت غطاء الجمعيات الجغرافية، ولكن حقيقتها كانت مختلفة تماماً عن الاهتمام الجغرافي، إذ أن لهذه الكشوف الجغرافية أهداف دينية، وسياسية، واقتصادية، وعلمية.

* الدافع العلمي:

احتكت أوروبا بالعالم الإسلامي في مرحلة الحروب الصليبية، فتعرف الأوروبيون على بعض المفاهيم العلمية الجديدة عند المسلمين، خاصةً في مجال الجغرافية والفلك. فعلى سبيل المثال: لم يعلم الأوروبيون بكروية الأرض إلا في تلك المرحلة. وكان لمثل هذه المفاهيم الجديدة التي تعلموها من المسلمين أبلغ الأثر على نفوسهم، إذ أنها حركت فيهم روح البحث العلمي، ونمت عندهم حب المغامرة والاستكشاف.

* الدافع السياسي:

تطورت أوروبا سياسياً، ونشأت بعض الدول مثل: إسبانيا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا وهولندا، وأرادت هذه الدول أن توسع من مناطق نفوذها، وتعزز اتجاه الكنيسة في نشر المبادئ النصرانية، مما شج الكشوف الجغرافية عن الأوروبيين.

* الدافع الديني:

شكل الدين أهمية كبرى في حركة الكشوف الجغرافية، خاصةً عند الإسبان والبرتغاليين الذين حرصت كنيستهم على نشر المذهب الكاثوليكي، وشجعت البابوية هذا المذهب رغبةً منها في نشر النصرانية خارج أوروبا.

* الدافع الاقتصادي:

سيطرت الدولة الإسلامية على رقعة كبيرة من الأرض مكنتها من التحكم بمداخل الطرق التجارية البرية والبحرية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا، وبالتالي أصبحت الدولة الإسلامية هي المسيطرة على حركة التجارة في المنطقة، ولا يمكن أن تنتقل بضائع الشرق كالتوابل وغيرها إلى أوروبا إلا عبر الطرق الخاضعة لسيطرة المسلمين. وكانت هناك شراكة فعلية بين تجار البندقية في إيطاليا وتجار الشام ومصر في إدارة التجارة مع الهند في التوابل والحرير. وكان الدينار الإسلامي يعامل كعملة حرة دولية. ولأن المسلمين هم المتحكمون بطرق التجارة فقد تحكموا أيضاً بأسعارها. وقد أدى ارتفاع أسعار تلك السلع إلى بحث دول أوروبا عن طريق يجنبهم المرور بأراضي المسلمين، وبالتالي الحصول على بضائع الشرق بأسعار معقولة.

والطرق البرية التي سيطرت عليها الدولة الإسلامية هي:

* الطريق الي يربط أوروبا بالصين عبر آسيا الوسطى.
* الطريق الذي يربط أوروبا بالخليج العربي والمحيط الهندي.
* الطريق الذي يربط البحر المتوسط بالمحيط الهندي وشرق آسيا عبر شبه الجزيرة العربية.

أما الطرق البحرية التي سيطرت عليها الدولة الإسلامية فهي:

* طريق البحر الأبيض المتوسط.
* طريق البحر الأحمر.
* طريق الخليج العربي.

وكان من نتائج النهضة الفكرية الأوروبية تطور الصناعة والتجارة في أوروبا. وبالتالي فإن الثروات التي كان ينعم بها العالم الإسلامي شكلت عامل جذب مهم للشركات التجارية والصناعية التي تبحث عن أسواق لتصريف منتجاتها، وأيدي عاملة رخيصة، ومواد خام ضرورية لتلك الصناعات. فاشتد التنافس الاستعماري بين دول أوروبا المتطورة، واتصف لأول مرة بالتاريخ بالعالمية لأنه لم يعد مقتصراً على الحدود البرية المشتركة بين دولتين، بل شمل البقاع التي وصلتها أساطيل وجيوش تلك الدول.

**اتجاهات الكشوف الجغرافية الأوروبية:**

بدأت الكشوف الجغرافية الأوروبية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بالكشف عن المناطق المجهولة بالنسبة للأوروبيين، وانتهت في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي باستعمار تلك المناطق المكتشفة. وتعد البرتغال هي الرائدة في هذه الكشوف، حيث سبقت دول أوروبا الأخرى في هذا المجال، وكانت أفريقيا هي الوجهة الأولى لأولئك المستكشفين البرتغاليين. وتعود هذه الريادة إلى خبرة الأمير هنري الملاح (796-864هـ/ 1394-1460م) الذي أسس أكاديمية بحرية في البرتغال، فتطورت الخبرة في مجال الملاحة والرحلات الجغرافية. وكان لحملات هنري الملاح الكشفية عدة أهداف، تتلخص فيما يلي:

* نشر النصرانية على المذهب الكاثوليكي.
* تعقب المسلمين الذين خرجوا من الأندلس، والقضاء عليهم.
* اكتشاف طرق جديدة للتجارة غير تلك التي يسيطر عليها المسلمون.
* السيطرة على تجارة الشرق.

أما أهم الرحلات الكشفية البرتغالية فهي كالتالي:

* رحلة الأمير هنري الملاح، التي مكنته من احتلال السواحل الممتدة من المغرب إلى نهر السنغال.
* رحلة بارثولميو دياز الأولى، التي وصل خلالها إلى خليج غينيا وساحل العاج ونيجيريا والكاميرون حتى مصب نهر الكونغو.
* رحلة بارثولميو دياز الثانية، التي وصل خلالها إلى رأس العواصف (893هـ/ 1488م).
* رحلة فاسكو دي جاما (902هـ/ 1497م) التي تمكن خلالها من الدوران حول أفريقيا وعبور المحيط الهندي والوصول إلى الهند.
* رحلة كرستوفر كولومبوس (897هـ/ 1492م) التي وصل خلالها إلى جزر المحيط الأطلسي في العالم الجديد، وأطلق عليها جزر الهند ظناً منه أنه قد وصل إلى جزر الهند الشرقية (جزر التوابل والبخور).
* رحلة ماجلان، التي تمكن خلالها من الدوران حول العالم.

**نتائج الكشوف الجغرافية الأوروبية:**

كان للكشوف الجغرافية الأوروبية أثراً واضحاً على أجزاءٍ من العالم، ولعل قارة أفريقيا والعالم الإسلامي هما أكثر مناطق العالم تأثراً بهذه الاكتشافات. ذلك أن طول الطريق البحري الجديد ومخاطره لم يجعلاه الخيار الأفضل لنقل التجارة من الهند إلى أوروبا، بل بقيت الطرق القديمة التي تمر بالمنطقة الإسلامية هي الخيار الأفضل، مما جعل البرتغاليون يقفلون طرق التجارة الإسلامية في الخليج العربي والبحر الأحمر. ولذا؛ فقد تركت الكشوف الجغرافية أثراً واضحاً في مجال الاقتصاد في الشام ومصر واليمن. فبعد أن كانت تلك البلاد تملك ثروات هائلة من بضائع الشرق الأقصى، خلت أسواقها من تلك البضائع وحل الكساد بمصر، وضعفت الحركة التجارية. ومن أهم النتائج التي تمخضت عن هذه الاكتشافات ما يلي:

* انتقال مراكز التجارة إلى غرب أوروبا، وبالتالي عزل العالم الإسلامي من السيطرة على تجارة العالم.
* ارتفاع وتيرة التنافس الأوروبي للسيطرة على أكبر بقعة ممكنة من الأراضي بغية الحصول على المواد الخام، والأسواق لغرض تصريف منتجاتها الصناعية.
* ازدهار أوروبا اقتصادياً، وبالتالي تمكنها من السيطرة على العالم كله.
* ظهور القومية الأوروبية، وبالتالي استحقار بقية شعوب العالم.
* سعي الأوروبيين لنشر النصرانية بتشجيع من الكنيسة.
* انتقال ميدان الصراع السياسي بين دول أوروبا من أوروبا إلى أراضي الدول المستعمرة.

المراجع:

* إبراهيم محمد بلولة: "البعد الديني للكشوف الجغرافية"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ع6، س1426هـ/ 2005م.